

مدينة وهران و ناحيتها في مذكرات الجنرال ديميشيل

د/ حسن الصادقي
معهد الدراسات الإفريقية جامعة محمد الخامس السويسي الرباط

مقدمة :

اشتهرت مدينة وهران المحروسة في العالم المتوسطي، والإسلامي، بفعل الأحداث السلبية التي عاشتها من احتلال اسباني و فرنسي ووجود تركي، إذ كانت المدينة محط أطماع الدول القوية المتوسطية، و لا تكاد تسلم من وجود الدخيل حتى يأتي دخيل آخر ، كان أمره وأقساه هو الدخيل والمحتل الفرنسي.

كما اشتهرت المدينة لدى الجغرافيين والرحالة المسلمين من المشرق والمغرب، وزارها بعض الرحالة الأوروبيين الذين كانوا جواسيس أكثر منهم رحالة.

وقد سجل كل هؤلاء انطباعاتهم عن مدينة وهران، وهي انطباعات مختلفة حسب هذا الرحالة أو ذاك وحسب الغرض المرجو من كتابة الرحلة، ولا تتعدى هاته الانطباعات الورقة أو الورقتين أو بضع ورقات، ومن أمثلة ذلك:

كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان الفاسي ، و"الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا و بحرا" لأبي القاسم الزياني، و"الرحلة الحبيبية الوهرانية" لأحمد سكيرج الفاسي ، أو "رحلة ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا" للرحالة الألماني هانريش فون مالتسان، الذي دخل إلى الجزائر بعد الإحتلال الفرنسي وذكر الفظائع التي ارتكبها المحتل تجاه المدنيين و سياسة الأرض المحروقة لإخضاع الجزائر.

وان كانت هاته الكتابات مصادر تسلط بعض الأضواء على مدينة وهران، وتعطينا بعض الانطباعات عنها إلا أنها لا تشفي الغليل، لأن وصف المدينة يأتي ضمن وصف مدن القطر الجزائري.

لذا، وجهنا دفة البحث إلى كتابات أخرى تقي بالغرض المقصود، ونعني بها الكتابات الأحادية للمدن الجزائرية من مذكرات وتقارير وملاحظات، خاصة تقارير العسكريين الفرنسيين، وحكام المناطق المحتلة.

وهران في الكتابات الفرنسية :

لا يخفى أن الحكام العسكريين، والباحثين الاجتماعيين الفرنسيين، قد تركوا كتابات مهمة عن المدن الجزائرية، ومنها مدينة وهران وناحياتها بعد احتلالهم السهل والمباغت لها.

وقد اخترنا نموذجا لهاته الكتابات هو كتاب بعنوان " وهران تحت حكم الجنرال ديميشيل " من تأليف الجنرال الفرنسي ديميشيل ، يحتوي الكتاب على 256 صفحة من الحجم المتوسط، تنقصه الصور و الخرائط و صدر بباريس سنة 1835 م .

المؤلف: هو لويس أليكسي ديميشيل (البارون) (1779 / 1845م) حصل على مرتبة جنرال في الجيش الفرنسي، و ساهم بشكل بارز في مدّ الإستعمار، والإستييطان الفرنسي في الجزائر، خاصة مدينة وهران و المدن والقرى القريبة منها مثل مستغانم و ارزو. وكانت له مراسلات مع الأمير عبد القادر الجزائري، جاء بنصها في متن كتابه عن وهران.

وكان ديميشيل، يعتمد على الهجوم المباغت والغادر للقبائل، والدواوير، وينهج سياسة أسر السكان من رجال ونساء وأطفال، وعلى السلب والنهب، ويعترف ديميشيل بذلك في كتابه هذا. ففي إحدى حملاته الغادرة ضد السكان، استطاع الجيش الفرنسي الاستيلاء على 88 رأس من الجمال، و 440 رأس من الأبقار، و 3000 رأس من الأغنام، و 20 بغلا، و 4 خيول، و 51 حمارا وساقها إلى مسؤول التموين العسكري بوهران.

أهمية مدينة وهران بالنسبة للإستعمار الفرنسي في بدايته:

كانت مدينة وهران من الأهمية بمكان بالنسبة للجنرال ديميشيل، لأنها تمثل أحد مفاتيح استكمال السيطرة الفرنسية على باقي القطر الجزائري، نظرا لموقعها ومكانتها، وما تزخر به من موارد اقتصادية ستساعد المستعمر بدون اللجوء إلى موارد من خارج المنطقة.

لذا اهتم الجنرال ديميشيل، بتدوين ملاحظاته عن مدينة وهران و نواحيها، وأضاف إلى ذلك اقتراحاته وما قام به وما سيقوم به من منجزات عسكرية في شكل كتاب أطلق عليه اسم مدينة وهران.

معطيات عن المدينة و نواحيها من خلال الكتاب :

يبدأ ديميشيل حديثه في كتابه قائلا:

" تزودنا تقارير مأموريات ضباط القيادة العليا بإقليم وهران والتي أتوصل بها يوميا بالإيجابيات مقارنة مع التقارير المنجزة وقت الحرب، ومدى الإستفادة التي سنجنيها في هذا الإقليم فهو إقليم كبير المساحة وكثير السكان يحده من الغرب مملكة المغرب ومن الجنوب الصحراء و يمتد في الشرق من مصب الشلف إلى فداح أحد روافده، وإلى جانب وهران هناك مدن تلمسان ومستغانم و معسكر" و يبلغ عدد سكان إقليم وهران أكثر من 1700.000 نسمة منهم ما يزيد على 100.000 فارس.

وصف مدينة وهران :

ينتقل الجنرال ديميشيل بعد ذلك، إلى إلقاء الضوء على مدينة وهران وموقعها ومحيطها، مركزا على الناحية العسكرية وهي التي تهم المستعمر و هل هي مدينة محروسة أم سهلة المنال ؟

موقع المدينة :

يقول ديميشيل:"تقع مدينة وهران على ثنية أو ظهر جبلين يفصلهما وادي مخضر وظهير بفعل الأعشاب والأحراش وهو يسقى من عدة عيون مكونة مجرى مائي ينحدر نحو البحر مكونا عدة تساقطات مائية تمكن من إقامة عدد من المصانع و المطاحن".

وقد حصنت المدينة بمبالغ ضخمة من طرف الإسبان الذين استولوا عليها سنة 1509 بقيادة "دون بدرو دونافار" وحضور "الكاردينال كزيمينس"، و هي محاطة بخندق ومحصنة بأسوار جميلة.

التحصينات :

في الشرق هناك القلعة أو شاتونوف، وحصون سان اندري و سان فيليب، في الجنوب هناك الحافة محمية بخمسة أبراج، وحصن سان فيليب في الغرب سنتا كروز وحصنه، والقصبة القديمة وحصن سان كريكوار، في الشمال حصن سانت تيريز، وبعض هاته التحصينات تحتاج إلى إصلاحات باستثناء سانت تيريز و لامونا وسان كريكوار و شاتونوف. وقد أضاف ديميشيل حزاما أمنيا، و متاريس حتى يسيطر على سهل المدينة ويبعد هجومات القبائل المجاورة لها، وهي من تخطيط فريق الهندسة العسكرية الفرنسية.

أحياء المدينة :

تنقسم مدينة وهران حسب ديميشيل الى ثلاثة أحياء:

الحي البحري ، المدينة المورسكية، و المدينة الجديدة ، ويضيف بأن أزقة المدينة عريضة وبها عدة منازل جميلة بنيت على الطريقة الأوروبية بعد استتباب السلام حسب قوله .

عدد سكان المدينة و جنسهم :

يقول ديميشيل في كتابه : " كان عدد سكان مدينة وهران يبلغ حوالي 25.000 نسمة قبل مجئ الفرنسيين"، ويعترف ديميشيل، أنه بعد احتلال المدينة وقعت هجرة كثيفة للسكان المسلمين .

وأصبح عدد سكانها كالآتي : 3500 يهودي و200 عربي، وعدد من الزنوج وتعدادهم الكلي هو 3900 نسمة. وكان عدد الفرنسيين وقت الحرب 800 فردا وأصبح بعد ذلك في زمن حكم ديميشيل 3000 فردا. (هذا يوضح بجلاء سياسة طرد السكان المحليين وسياسة الاستيطان الفرنسي التي نهجها الحكام العسكريون منذ السنوات الأولى للاستعمار).

حوض المرسى الكبير:

يعتبر هذا الحوض بمثابة مرسى وهران، رغم بعده عن المدينة بمرحلتين ويسمح برسو السفن، وتم الشروع في تشييد طريق يربط بين وهران والميناء وسيسهل نقل السلع .

مشروع ميناء وهران:

يشير "ديميشيل" في كتابه، إلى مشروع بناء مرسى كبير ستصبح معه مدينة وهران من بين أهم المدن التجارية المتوسطية، وقدم هذا المشروع إلى الحكومة الفرنسية من طرف مهندس مدني .

المنشآت العسكرية :

دار السلاح : تم الشروع ابتداء من منتصف سنة 1832م ،في بناء دار لصناعة السلاح والذخيرة، بأمر من وزير الحربية، وانتهى البناء وسيعمل به 50 عاملا، وبه آلة لصناعة الأسلحة وفرن حديدي وقوالب متعددة الأشكال.

إنشاء مراكز دفاعية متقدمة ابتداء من مايو 1833م في اوريان، والمرسى الكبير وفي شمال وجنوب المدينة، وإنشاء طرق مادية لها.

منشآت وأشغال أخرى: أنجزت هاته المنشآت والأشغال، ما بين فاتح مايو 1833م و 10 فبراير 1835م، وهي منشآت متعددة، و تشمل طريق المرسى الكبير وهي على طول الشاطئ . إنشاء طريق بشاتونوف. تحويل مسجد كركطاح الى ثكنة دفاعية تأوي 100 رجل وإسطبل ل 214 حصان، بناء ثكنة تسع ل 300 رجل و 280 حصان، إصلاح بناءات القصبة القديمة لإيواء 500 رجل وإصلاح ثكنة. بناء محل لصنع الخبز به ثلاثة أفرنة، ومستودع للخبز، وصهريج للماء مرتبط بساقية المدينة. وخصصت الطبقة الأولى لخزن الدقيق وهي مرتبطة بالمطاحن وبمسكن العمال، و بدأ هذا المصنع في الاشتغال في شهر أغسطس 1834 م .

محيط مدينة وهران :

لا يمكن فصل مدينة وهران عن محيطها وإقليمها لأن سكانها يتعاملون مع البادية والقرى والمدن المجاورة، ولبعضهم ضيعات وأراضي فلاحية ومواشي. و من المحيط يتزودون بالقوات و يبيعون سلعهم لسكان البادية.

لذا ركّز الجنرال ديميشيل في كتابه، على إعطاء القارئ نظرة مجملّة على محيط وهران الكبير وما يكتسبه من أهمية اقتصادية، سواء من الناحية الطبيعية، كالفلاحة من زراعة و تربية المواشي، و المياه من أنهار و عيون وتربة خصبة، و معادن في جوف الأرض ستفيد المستعمر الفرنسي المدني والعسكري، وهذا سيشجّع سياسة الاستيطان، و سيزود فرنسا بثروات لم تكن تحلم بها لكي تنافس الدول الأوروبية الأخرى خاصة ألمانيا.

ونلاحظ أنه يولي العناية والاهتمام بالخيول العربية و المحلية التي تملكها القبائل المحيطة بوهران وهي خيول قوية وصبورة، وتجيد الكر والفر عكس الخيول الأوربية القصيرة والقاصرة عن الحرب.

الفلاحة في محيط مدينة وهران :

الزراعة: أعجب ديميشيل بالتربة الخصبة الغير المستغلة ووفرة المياه وسجل ذلك في كتابه. وذكر أن السكان يقومون بزراعة الحبوب، وغرس الكروم والتين الذي يجفف، وأشجار الرمان والليمون ، و يمكن إنتاج القطن في هاته الأراضي. و يزرع السكان الأرز على ضفتي وادي المينا، وهو نوعية ممتازة، ويستهلكه السكان و سيعطي نتائج باهرة إذا ما زرعه الفلاحون الأوربيون.

المواشي : تربي في محيط وهران عدد كبير من قطعان الماشية، مثل الأبقار والأغنام والجمال والحمير والخيول القوية و الجميلة، وهي تصلح كحصان حرب قوي يزود الجيش الفرنسي بفرق الخيالة القوية .

المعادن:

يشير ديميشيل حسب التقارير، إلى معدني الحديد والرصاص، وهي قريبة من وهران. و هناك حجر لإسمنت وكذلك الذهب ، ومعادن أخرى وهي ستفيد فرنسا إذا ما استغلت.

التجارة الداخلية والخارجية للمدينة:

ركز ديميشيل على التجارة الداخلية والخارجية، وقد اشرنا إلى مشروع ميناء وهران، ويقول أن التجارة الداخلية في وهران مزدهرة في الحبوب و المواشي ، وتأتي قبائل جنوب الأطلس بمنتجات مثل التمر وريش النعام، وكميات هائلة من الصوف ، بالإضافة إلى الزيوت والفواكه المجففة، والشمع والعسل والزرايبي والألبسة مثل البرنوس وكذلك الأسلحة والبارود والصابون والجلود.

و يشير إلى أن القبائل صارت تقبل على السلع الأوربية الموجودة في المخازن، مثل الحديد والأغطية، والحلي والأثاث القطنية ومنتجات أخرى، وأن الأوربيين يستفيدون من هاته التجارة.

هذا قليل من كثير مما يزودنا به كتاب مدينة وهران تحت حكم ديميشيل من معطيات بالأسماء والأرقام لا نجدها في كتب الرحالة الأجانب، و لا في كتب الحوليات التي اهتمت بتاريخ الجزائر لأن كاتبه ساهم في الأحداث وعاین المنشآت عن قرب وكانت له اليد الطولى فيها.